رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقـرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذ نظرنا إلى تكوينه الذى جعله مستعـد لتلك الأعمل مضطلعًا بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم أن تقترن بالعمل الذى تستطيعـه، لما يتفق أحيانًا من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمر كان رجـلاً ممتازًا بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتـياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العـبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده[1].

وإذا وصفـته للمحـدثين الذين يقيـسون العبـقرية بالعلم أو مـشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه - قبل السـماع من أعماله - توقع فى الربوع[2] أنه من معدن فى الرجال غـير معدن السواد[3]، وأنه جدير بالهيبة والإعظام، خليق أن يحسب له كل حساب كان مهيـبًا رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه، وأولها جهة عمر.

أذن النبى يومًا لجارية سـوداء، أن تفى بنذرها "لتضربن بدفهـا فرحا أن رده الله سالمًا" فأذن عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه.

ودخل أبو بكر وهى تـضرب، ثم دخـل على وهى تضـرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب، والصحابة مجتمعون.

---

(١) نسيج وحده: لا نظير له.

(٢) الروع: العقل أو القلب.

(٣) سواد الناس: عوامهم.

فما هو إلا أن دخلعمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفها تخفيه، والنبى عليه السلام يقول: "إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!".

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة[1] ودعت سودة أن تأكل منها فأبت، فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها، فلم تأكل، فوضع يدها فى الحريرة ولطختها بها. وضحك النبى علية السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: لطخى أنت وجهها. ففعلت.

ومر عمر فناداه النبى: يا عبدالله! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما: قومًا فاغسلا وجهيكما!

قالت السيدة عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ومن تلك الهيبة أنها كانت رى الله عنها تتحفظ فى زيادة قبره بعد موته، وحكت ذلك فقالت: "ما زلت أضع خمارى وأتفضل[2] فى ثيابى وأقول: إنما زوجى وأبى، حتى دفن عمر بن الخطاب، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً فتفضلت بعد".

وأن من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضى عنها واغتباطًا بأثرها فى نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة أهل البغى والبهتان.

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذى يجهلونه.. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة أن تملأ الأنظار. فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر والثياب. أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا

---

(١) الحريرة هنا: دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء.

(٢) التفضل: ليس الفضال وهو الثوب يلبس فى البيت للخدمة أو النوم.

تذهبها الألفة وطول المعاشرة، ومن ذاك أنه كان تمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت، فلم يبق منهم أحداً إلا وحيل ركبتيه ساقط!

وتنحنح عمر والحجام يقص له شعره فذهل الحجام عن نفسه وكا أن يغشى عليه، فأمر له بأربعين ردهمًا.

فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعًا يهول من يراه، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويلاً بائن الطول يرى ماشيا كأنه راكب، جسمًا صلبًا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب.

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتيار بين بنى الإسلام، وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل الأخلاق والأعمال.

فالعالم الإيطالى "لومبروزو" ومدرسته التى تتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها.. وهى علامات تتفق وتتناقص ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوترة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكون العبقرى طويلاً بأن الطول، أو قصيراً بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهودفى سائر الناس. ويكثر بين العبقرين من كل طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء، فيكون من تفرط سورته[1] كما

(١) سورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزناكة[1] والفراسة، وتارة فى النظر على البعد، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله.

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلاقات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقة فى حالات، مقاربة فى حالات، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام، ولاسيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفى عمر بن الخطاب هذه العلامات كثير.

كما كان تقدم طويلاً يمشى كأنه راكب، وكان أعسر[2] يسراً يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكما كان وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟ فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم.

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله، وآثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومن فرط حسه وتوفز شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينه. سقاه غلامه ذات يوم لبناً فأنكره. فسأله: ويحدث! من أين هذا اللبن؟ قال الغلام أن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله.

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا جميعًا أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلاً يدعون بين لبن الناقلة غيرها هذه التفرقة السريعة، ولاسيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

---

(١) الزكانة والفراسة: أن يظن الشخص فيصيب.

(٢) الأعسر اليسر: الذى يعمل بكلتا يديه.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن "من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه" . . . وتروى له فى أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لاشك فيها، وهى أنه أشهر بالفراسة وحب التفرس بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالساً فمر به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية. . . فكان كذلك.

وأنه أبصر أعرابيًا نازلاً من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده، قد نظم فيه شعراً لوشاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت؟ فقال: من أعلى الجبل. فسأله: وما صنعت فيه؟ قال: أودعته وديعة لى. قال: وما وديعتك؟ قال: بنى لى هلك فدفنته قال: فأسمعنا مرثيتك فيه. فقال: وما يدريك يا أمير المؤمنين؟ فو الله ما تفوهت بذلك، وإنما حدثت به نفسى، ثم بعد أبياتًا ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك له ... فى حكمه كان ذا وفى قدره

قدر موتا على العباد فما ... يقدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابى.

وكان عمر بن وهب الجمحى وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان: والله ما إن فى العيش بعدهم خير. فوافقه عمر وهو كالمعتذر من تخلفه عن الثأر: أما والله لو لا دين على ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقال صفوان يحرضه: على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، لا يسغى شىء ويعجز عنهم .

فوقع كلامه من نفس عمير، فأسر إليه بعزمه على الغدر بالنبى وشحذ سيفه وسمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فما نظر عمر إليه متوحشًا بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا الشر، وهو الذى حرش بيننا وحزرنا[1] للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبى فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ سيفه فى عنقه فلببه[2] بها، وقال لرجال من الأنصار: أدخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحالة سيفه فى عنقه قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير!

وجعل رسول الله يسأل عميرًا وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسره، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبهاتها هى ضرب من استيجاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من حواشيها... إذ ما هى العبقرية لبابها كائنًا ما كان عمل المتصف بها؟ ما هى الحكمة العبقرية؟ ما هو الفن العبقرى؟ ما هو دهاء السياسة فى الدهاة العبقريين؟

من هو:

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الألباب... فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه.

والذى يعيننا من الفراسة وشبيهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار،

---

(١) حزر الشىء: قدره بالتخمين.

(٢) لببه: جمع ثيابه عند نحره ثم جره.

وهى التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو "التلباثى" كما يسميه النفسانيون المعاصرون. ولكل أولئك شواهد شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك قال قريب. وسأله مرة أخرى: ابن من؟ فقال ابن ظفر! فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن معيد أن عمر سأل رجلا: ما اسمك؟ قال: جمرة! فسأله: ابن من؟ قال: ابن شهاب. فسأله: ممن؟ قال من الحرقة، وعاد يسأله: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقد يكون التأليف ظاهراً فى هذه الصة ولكنها مع تأليفه لا تخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا فآخر ما روى عنه من أخبارها أنه رأى فبيل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال: يسوق الله إلى الشهادة ويقتلنى أعجمى، فإن الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً فى قصة سارية المشهورة، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثى Telepathy أو الشعور البعيد.

كان رضى الله عنه بخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة نادى: يا سارية: حصن! الجبل.. الجبل..! ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله على رضى الله عنه: ما هذا الذى ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم.. أنا وكل من فى المسجد.

فقال وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخـواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمـرون بجبل. فـإن عـدلوا إليه قـاتلوا من وجـدوه وظفروا، وإن جـاوزوه هلكوا، فخرج منى هذا الكلام.

وجاء البشيـر بعد شهر فذكر أنهم سمعـوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جـاوزوا الجبل صوتًا يشـبه صوت عمـر يقول: يا سارية حـصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعى للجـزم بنفى هذه القصـة استنادا إلى العـقل أو إلى التجـربة الشائعـة. فإن العقل لا يمنعهـا. والعلماء فى عصرنا لا يتـفقون على نفـيها ونفى أمـثالهـا، بل منهم من مـارسوا "التلبـاثى" وسـجلوا مشـاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين.

إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشـفة الأسرار الغيبية إمـا بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهى الهـبات التى يلحقها بالعبقرية علمـاء العصر الذى درسوا هذه المزية الإنسانيـة النادرة وراقبوها وأكثـروا من المقارنات فيهـا والتعقـيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء.